

شعر الثورة

بن حفصة عائشة

طالبة دكتوراه، تخصص أدب

كان لوجود الإستعمار الفرنسي في الجزائر أثره في إثراء الأدب الجزائري، حيث وجد الجزائريون أنفسهم مجبرين على مواجهة هذا الواقع الصعب ، وذلك لن يكون إلا إذا كان هناك ما نسميه بالوعي السياسي فالشعب الجزائري آنذاك كان يفتقر لهذا الوعي الذي يزرع فيه الرغبة في تغيير أوضاعه المزرية .

في الوقت الذي كان فيه أصحاب الأقدام السّود يدعون أن سبب وجودهم في الجزائر هو سعيهم لنشر الحضارة ، كان بعض الجزائريين الذين كانوا يتميزون بطلاقة لسان يقصدون بعض الأماكن والمجاسل لإلقاء قصائد من الشعر الملحن لنشر الوعي واستنهاض الهمم ذلك أن الإستعمار يظل استعمارا .

كان للشعر الشعبي أو الملحن أثره في زرع بذرة آتت ثمارها ، وكان من ثمارها الثورة التحريرية التي أخرجت هذا المستعمر وهو يجر أذيال الخيبة لأنه لم يتمكن من السيطرة على شعب يرغب في الحرية والعيش في بلاده قريبر العين .

ومن جهة أخرى لعب الشعر الشعبي ، دورا كبيرا في تسجيل الوقائع و الثورات التي جرت بين الجزائريين و الإحتلال الفرنسي، يمكننا القول أنه لعب دور الموثق التاريخي .

غير أن هذا لا يعني أن الشعر الملحن اقتصر على هذا الغرض بل خاض في أغراض أخرى منها : حالة السكان الإقتصادية ، و الأزمات و النكبات الطبيعية وأحوال التصوف و المتصوفين ، ورثاء رجال الدين ، إلا أننا فضلنا الحديث عن دور الشعر الشعبي في الثورة لأنه عبر عن ردود فعل الشعب الجزائري و رفضه للعيش تحت وطأة هذا الإحتلال الذي سلبه حريته .

سعى الإحتلال الفرنسي جاهدا للقضاء على الثقافة الجزائرية ، لذلك كان الشعر الشعبي يزرع الحماسة في نفوس الجزائريين للعمل على مقاومة هذه الأقدام السود وإخراجها من الأرض التي طامنا جادت بخيراتها على أبنائها .

كان الإحتلال الفرنسي يعني في اعتقاد الشاعر الشعبي غزوا للإسلام بالدرجة الأولى ذلك أن الإسلام في مفهوم الطبقات الشعبية هو المقياس الذي يحدد هوية الإنسان الجزائري وليس مجرد الإلتقاء إلى الوطن ومن هنا كان الجهاد في سبيل الله والدفاع عن الإسلام هو الهدف الأسمى من النضال⁽¹⁾.

وقد لعب الشاعر الشعبي دورا هاما في الثورات الجزائرية على اختلاف مراحلها فكان شاعر نضال ورفيق سلاح وحامل رسالة يستمد شعره من عاطفة دينية قوية ويحمل بين جوانحه ضميرا قوميا شفافا رأى في أهداف الغزو الإستعماري غزواً لدين وهدما لكيان الإنسان المسلم⁽²⁾.

فهل كان الشاعر الشعبي يريد الوصول إلى شيء من خلال ما قاله ؟ وهل عبّر عن حقيقة ما أحسّه الشعب الجزائري إزاء الإحتلال الفرنسي؟

يمكننا الإجابة عن هذه الأسئلة من خلال النماذج التي سنعرضها.

من الشعراء الذين تغنّوا بالثورة نذكر منهم :

أحمد مختاري (بلعيد) الذي عرف بالصوت الحسن منذ الصبا . كان يغني في الأعراس ثم بدأ نجمه في الصعود محليا كلما تقدم به السن حتى أصبح على رأس طبقة المغنين بالمنطقة مما جعله يهجر الأعمال الأخرى ويمارس الغناء أول مرة هاويا ثم محترفا خاصة في فصل الصيف والخريف حيث تكثر حفلات الزفاف⁽³⁾.

من إبداعاته هذا النص :

أنا قاعد في راس الكاف دويل كي* وتحوم علي .
جات من سقان** يا الأولاد واصلوا خبري لموالية⁽⁴⁾

ومن الشعراء "محمد صالح لوصيف" الذي يقول في نصه "أول نوفمبر"

* طائفة فرنسية .

** قرية قريبة من مطار بدائرة شلفوم العيد .

فالربعة والخمسين انهار الميدان ليلة فاتح نوفمبر تاريخ يشهد
اتحزمت الرجال هذوك الشجعان قامت الأبطال للحرب اتجاهد

ثورتنا بالنصر فتحت البيبان اثنين وثلاثين مكان في الأوراس تصهد⁽⁵⁾

إن هذه النصوص من حيث موضوعاتها نجدتها مركزة على كل ما يخص الثورة التحريرية ، وهذه الأخيرة تعد الموضوع

الأساسي لكل السكان في المناطق التي عمتها أو مستها من قريب أو من بعيد⁽⁶⁾

بدأ دخول النص الثوري إلى المواطن العام والخاص باحتشام وبشبه غموض لأن إذاعته في الناس يتطلب الحذر أول الأمر

مادامت الفكرة غير واضحة ، إذ أن مراحل تطور الحركة الثورية آنذاك اقتضت هذا الحذر والإحتياط وأدت إلى هذا

الغرض⁽⁷⁾

اخدموا النظام بالسرية جيبونا الإستقلال والحرية⁽⁸⁾

- لما سئل أحدهم ماذا فهمتم في تلك الفترة من كلمة الحرية الوطنية أجاب بأنهم تلقفوها سماعيا ، فأدخلوها في
النص وأنشأوا عليها هذه الثلاثية التي هي بمثابة نصيحة وتوجيه والنصيحة مستقاة مما يسمع حول هذه الحركة التي
قيل عنها أنها ستحقق الإستقلال الوطني وتطرد فرنسا .

وهكذا حق للشاعر الشعبي أن لا يفصح عن إسمه أي لا ينسب النص إلى نفسه بل وأن لا يردده إلا في أماكن
يطمنن إليها لأن ترديده لها بطلاقة يعرضه للخطر .

نبه أحد الفرنسيين إلى خطورة تلك النصوص بقوله "... ففي تلك الأغنيات والقصائد عبر الجزائريون عن
بغضهم ورفضهم الشديد للمستعمر⁽⁹⁾ .

كما أشار إلى ذلك جمال الدين خياري في قوله : "... واعترف الأوروبيون على أن القصيدة الشعبية ساهمت فعلا في إضرام
نار الثورات كثورة ابن زعمون سنة 1830 وثورة مليانة سنة 1851 .

إلتفات أصحاب النصوص إلى ما يتصل بالثورة عسكريا وسياسيا واجتماعيا واقتصاديا وتاريخيا جعلنا نلمس
وظائف هذه النصوص في الأبعاد التي رمى إليها أصحابها من خلالها⁽¹⁰⁾ .

فمثلا البعد السياسي : غايته استقطاب الجماهير الشعبية حول الثورة وفق التوجيه السياسي المتلقف من خطاب السياسيين والعسكريين على الجماهير... أو من التعليقات السياسية والإذاعية.

ومن تلك النصوص هذا النص الذي يقول فيه صاحبه :

خُوتِي يَا خُوتِي الْوَطَنِيَّة نَظَمُوا بَعْضُكُمْ بَعْضَ بَيْكُم بَانَسَاكُم

جَيِّبُوا الْمِيتَرَايَات الْعَسْكَرَ كَالَكُمْ

خُوتِي يَا خُوتِي الْوَطَنِيَّة..... لَسُورَتِيهِ جَاوُ

يَجُوسُوا عَلَى أَوْلَادِ الشَّعْبِيَّة (11)

البعد الاجتماعي :

قصد إيجاد التكافل بين مختلف الفئات الاجتماعية مدنية وعسكرية (أي أن الأعمال الموزعة بين هؤلاء حسب موقع كل فئة يجب أن تتضافر وتتعاون لتحقيق هدف معين هو الإستقلال) .

ومن النصوص نجد هذا النص الذي يقول فيه صاحبه :

اعْطَاوْنِي رُخْصَةَ انْشُوفِ أَوْلَادِي	الْمَجَاهِدِينَ يَا سَيَادِي
نَضْرِبُ عَلَى دِينِي وَنَحْرُ بِلَادِي	مَنْيْشُ مَفْرَطٌ فِي اجْهَادِي
اعْطَاوْنِي رُخْصَةَ انْشُوفِ يَمَّهُ	الْمَجَاهِدِينَ يَا لَهْمَّة
نَضْرِبُ عَلَى دِينِي وَنَحْرُ بِلَادِي	لِحَضْرَتِ الْمَنِيَّةِ نُمُوتُ ثَمَّة

البعد العسكري :

يبدو متنوعا متكيفا حسب المقام أو الهدف الذي تطرق إليه فهو إلى جانب إعلامه بالمعارك والأحداث، ... فإنه يتناول الشخصيات بحسب رتبته جنودا وضباطا وقد يتجاوز النص الأعمال إلى الصورة فيبين لنا لباس الجندي أو سلاحه معتزا بذلك¹²

رَحْنَا جَيْشَ التَّجْرِيرِ مَحْنَاشَ فَلَاقَةِ

طَالَعِينَ الْجِبَالِ انْفُوا

مَنْ سَبَّتِ الْوَطَنِيَّةَ اللَّهُ يَنْصُرُ .

عَيْنَ الطَّيِّبِ وَعَيْنَ النَّاقَةِ

هَزَيْنَا الْمَتْرِيَّاتِ

الِاسْتِعْمَارِ مَا هُوشَ مَقْصَرِ

أما البعد التاريخي :

فيقول عنه صالح خرفي : "... بل جوانب⁽¹³⁾ من مأساة الاحتلال افتقدناها في شعر الأمير تطالعنا بوجه سافر

في الشعر الملحون".

متابعتنا للنص الشعبي من هذه الزاوية يجعلنا نجد الأماكن التي ترعرعت فيها الثورة التحريرية وبعرفنا بمعارك عديدة وقعت بالمنطقة كما يعرفنا بالكتائب التي خاضتها أو الفرق التي شاركت فيها أو المسؤولين الذين قادوها والنتائج التي نتجت عنها.⁽¹⁴⁾

ومن هذه القصائد نجد قصيدة للشاعر "بلخير" بعنوان " غَالِيَيْنِ أعيَادِ السُّومِ " والتي يقول فيها :

دِيرْ لِي فِي الْقِسْمَةِ الْوَفِيَّهِ عَوْدِي

مَنْ غَيْرِكَ يَعْطِي وَلَا يَدِي

يَا الْمَالِكُ الْقُدُّوسُ جَوَادِي

لَا اتَخَيَّبُ عِنْدَكَ يَا اللَّهُ سَعْدِي

مَا عَلِمْتُ الرِّزْقَ الْجَائِيَّ وَالْغَادِي

لَا زَمَ يَنَادِي بِهَا الْمُنْدِي

مَا يَلِيْقُ الْقَتْلُ إِلَّا مَعَ الضَّدِّ

بَيْنَ طَرْفَاوِي وَاغْوَاطِ وَزِيَادِي⁽¹⁵⁾

قَاعَ كَانَتْ فِي يَدِ أَشْيَاخُنَا تَهْدِي

كَامِلِينَ ثَلَاثَ ضَرْبَاتٍ فِي عَوْدِي

ثَاقِلٌ بِالْأَجْرَاحِ بِالْيُمْنِ بَرْدِي

دَبَّرْ عَلَيَّ يَا صَاحِبَ التَّدْبِيرِ

يَا لِي كَيْفَكَ مَا كَانَ حَدَّ التَّدْبِيرِ

يَا الْعَالَمُ يَا سَمِيعُ وَيَا بَصِيرُ

يَا لِرِّزَاقِ الْفَتْاحِ بَابُ الْخَيْرِ

كَيْفَ اكْتَبَ مُوَلَانَا الْحَالَ يُصِيرُ

الْكَاتِبَةُ تَلَحُّقُ بِهَا لَوْ كَانَ تَطِيرُ

وَأَشْ فَوَزْنِي بِكَرِيٍّ مَعَ الْخَنْثِيرِ***

كَانَ يَمْرُقُ وَانْجُو لَهُ عَقْدُ غَزِيرُ

فُوقَ مَنْ هَذَا الْغَاشِي حَسَابُ كَثِيرُ

يَوْمَ فِي الْقَارَةِ الْقَشْوَى⁽¹⁶⁾ هَارُ كَبِيرُ

كَامِلُ الْخَصْلَةِ يَجْرِي بِلَا شَبِيرُ

*** الخنثير: أحد قادة أولاد سيدي الشيخ - قدور بن حمزة.

ضَرْبَ نَطْحٍ مِنَ الرَّقْبَةِ إِلَى حَدِّ الدَّيْرِ مَا اكْذَبْتُشْ كُلَّ نَهَارٍ بِأَشْهُودِي⁽¹⁷⁾

ثم اندلعت ثورة سيدي الشيخ وعرفت بيوم الشلالة، يقول عنها أحمد بن دالة العامري:

يَا لِحَاضِرِ عَاوَدِ الْأَخْبَارِ وَشَتَاهِ صَارَ عَلَى نَهَارِ الشَّلَالَةِ فِي الزَّمَانِ مَعْدُودِ
سَعْدُ نَهَارِ الشَّلَالَةِ خَرَجَتْ الْمَحَلَّةُ جَاءَتْ ثَمًا الْخِيَالَةَ مَا بَقِيَ الْمَجْهُودِ
جَاءَتْ ثَمَّةُ الْخِيَالَةِ فَرَعَتِ الْقَبَالَةَ عَدَّتْ دَائِرَ دَوْلَةٍ وَبَهَتْ كِي الْمَغْدُودِ
رَأَاهُ فِي الشَّلَالَةِ مَحْصُورٍ بَيْنَ الْقُصُورِ مَرَّذَا الْكَلْبَ غَدًا مَدُورَ سَحْقِهِ الْبَارُودِ¹⁸

أما البعد الاقتصادي :

ف نجد في النصوص التي تتحدث فيها أصحابها عن الطريقة التي تجمع بها الأموال وتهافت الناس على الثورة بمساعدتها بكل ما يملكه سكان المنطقة :

سِي عَمَّارِ يَا خُوِيَا أَنْتَ حَوَّاسٌ فِي النَّاحِيَةِ.

– جِيِبْ اسْلَاحَ وَالْمَالِيَةِ خَادِمَ النَّظَامِ بِالسَّرِيَّةِ⁽¹⁹⁾

بعد كل ما عناه الشعب الجزائري من ظلم وقهر جاء اليوم الموعود يوم النصر العظيم الذي حقق فيه الشعب الجزائري الحلم الذي كان يسعى إليه وبذل في سبيله النفس و النفيس حيث جاء اليوم الذي طالما انتظره الجزائريون على أحر من الجمر . اليوم الذي ترفع فيه راية النصر و الحرية، ولا يخشى الجزائري من قول أنا جزائري ورفع العلم الوطني على الأرض التي ارتوت بدماء الأحرار الذين رفضوا العيش في الذل وحبذوا الموت على الإستسلام و الهزيمة وكانت هذه الثمرة التي زرعت في قلوب الجزائريين .

وقد شارك الشاعر الشعبي فرحة النصر –كأي جزائري- مع الشعب وجادت قرائحهم بقصائد عبّرت عن الفرحة بالنصر و الحرية. نذكر من هذه القصائد قصيدة لعبد القادر الخالدي بعنوان "كالي غير اليوم جينا"، والتي يقول فيها :

م اَبْرَكَ هَذَا الْيَوْمُ عَلَيْنَا بِالْجَزَائِرِ اسْتَوَلَيْنَا اسْتِيْلَاءً مَتْمُومِ

لَكَ الْحَمْدُ يَا مُوَلَانَا وَ الشُّكْرُ الدِّيُومِ

م اَبْرَكَ هَذَا الْيَوْمَ عَلَيْنَا كَالْيَ غَيْرِ الْيَوْمِ جِينَا مِنْ عَدَمِ مَعْدُومِ

طَلَعَتْ شَمْسٌ جَدِيدَةٌ رَيْنَا وَأَضْحَاتِ الْغَيُومِ

الْيَوْمِ انْحَلُّوا عَيْنَيْنَا وَاسْتَيْقِضْنَا مَنْ غَفَلْتُنَا وَأَضْغَاثُ الْحُلُومِ

اَكْرَمْنَا رَبِّي وَنُصِرْنَا وَعَدُونَا مَهْزُومِ

الْيَوْمِ زُهِينَا وَلَعَبْنَا وَتَعَرَّوْا سَنِينَا وَعَلَى التَّبَسُّومِ

اَفْرَحْنَا بِنَا بِأَهْلُنَا حَتَّى الْيَمِّ مَقْطُومِ

الْيَوْمِ سَعَدْنَا وَفَرَحْنَا وَالْيَوْمِ رَجَحْنَا ثَوْرَتَنَا وَالْوَطَنَ الْمَعْلُومِ⁽²⁰⁾

الإحالات والهوامش :

- 1- دور الشعر الشعبي الجزائري في الثورة 1830 - 1945 - التلي بن الشيخ - صدر عن وزارة الثقافة بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007 - ص: 98
- 2- نفسه - نفس الصفحة
- 3- الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة 1955 - 1962 - العربي دحو - ديوان المطبوعات الجامعية - ص: 75
- 4- نفسه - ص: 77
- 5- نفسه - ص: 83
- 6- نفسه - ص: 92
- 7- نفسه - نفس الصفحة
- 8- نفسه - نفس الصفحة
- 9- نفسه - ص: 53
- 10- نفسه - ص: 95
- 11- نفسه - نفس الصفحة
- 12- نفسه - نفس الصفحة
- 13- نفسه - ص: 97
- 14- نفسه - ص: 98
- 15- نفسه - ص: 99
- 16- ديوان بلخير - نور الدين خندودي - منشورات (ANEP) الجزائر - 2007 - ص: 94
- 17- نفسه - ص: 95

18- المقاومة الجزائرية في الشعر الملحون - إعداد وتقديم: جلول يلس - أمقران الحفناوي - صدر بمناسبة الجزائر عاصمة الثقافة العربية 2007 - ص: 65

19- الشعر الشعبي والثورة التحريرية بدائرة مروانة (1955 - 1962) - العربي دحو - ص: 100

20- ديوان عبد القادر الخالدي - جمعه الأستاذ: محمد الحبيب حشلاف - تممه وحققه وأعدّه للنشر: محمد بن عمرو الزرهوني - منشورات (ANEP) - 2003 - ص: 93